أمران... لابد منهما

هذه التعبئة التي نطلبها ونحرص عليها وننادي بها تحتاج إلى أمرين لا غنى عنهما، ولا تتحقق إلا بهما.

١ ـ المناخ السياسي:

الأمر الأول... هو المناخ السياسي الذي يتيح لهذه التعبئة المتكاملة أن تؤتي أكلها، وأن تبلغ غايتها، وأن تحقق أهدافها.

والمناخ الذي نقصده هو الذي يهيىء لجماهير الأمة أن تتنشق أنسام الحرية، وأن تخط مصيرها بيدها، وأن تملك حق الولاية والعزل، وأن تقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت.

المناخ الذي نقصده هو الذي يجعل جيش الأمة لحرب أعدائها، لا لإرهاب أبنائها، ويجعل مخابراته للتجسس على عورات العدو لا لتتبع أفراد الشعب وإرهابهم بالحرب النفسية وغسيل المخ... ويجعل أكبر همه المحافظة على سيادة الشعب لا على سيادة شخص أو أسرة أو حزب.

هذا هو المناخ الذي نريده وهذا هو النظام الذي ننشده لا ذلك الذي يخنق أنفاس الشعب باسم الشعب... ويزهق روح الحرية باسم الحرية.

وهذا يقتضي أن يكون لدينا قدر من الشجاعة لننادي بوجوب تغيير سياسي في المنطقة العربية لا أن نربت على كتف «صناع» الهزيمة، وندللهم كما تدلل الأم وليدها الوحيد، ونرخي لهم العنان ليعبثوا بمقدرات الأمة ومصايرها ويجروها إلى نكبات ونكسات أخر، بدل أن نأخذ على أيديهم، ونصرخ في وجوههم: قفوا مكانكم ﴿ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1] المجرمون الذين يلبسون لبوس الأبطال المنقذين.

لا بد من تغيير سياسي في المنطقة العربية، تغيير جوهري لا عرضي.. تغيير حقيقي لا صوري، تغيير في نفس الرواية الممثلة لا في الوجوه والأدوار فحسب. تغيير يصحح الأوضاع المنحرفة، ويقوِّم الأنظمة العوجاء، ويقيم الحكم على العدل والأخوة والشورى. وهي الركائز التي أراد الله أن يقوم عليها بناء الدولة في الإسلام.

ثم لا بد من تغيير سياسي تتفرغ معه الجيوش للحرب و الجهاد لا للسياسة وادارة الشركات.

فالأمة لم تنفق مئات الملايين على جيوشها تدريباً وتسليحا لتحترف السياسة بل لتحترف القتال.

ومن الظلم الصارخ ـ وهو أيضا من العبث ـ أن يكلف بضعة مئات أو آلاف من أبنائنا وأخواننا الفدائيين عبء مقاتلة اسرائيل بحصونها وطيرانها ودباباتها وقواتها النظامية المجهزة بأحدث سلاح، على حين تظل جيوشنا المكونة من مئات الألوف تستنزف كل عام

---

(١) سورة يس، الآية: ٥٩.

الأموال الضخمة من مواردنا وأقوات شعبنا، . ودون أن تقدم شيئا غير الأستعراضات العسكرية في المناسبات الوطنية والثورية! .

هذا هو النظام الذي نطالب به ونؤمن بضرورته، وخاصة في هذه المرحلة من تاريخنا، و أول سماته أن يرفع هذا الشعار ويتبناه: الجيش لا للسياسة، والجيش لقهر العدو لا لقهر الشعب.

وثاني سماته: أن يحقق الحرية السياسية للشعب... حرية الحقوق لا حرية الفسوق، الحرية التي تحمي الحرمات لا التي تغذي الشهوات.. الحرية التي تجريء الفرد العادي من الناس أن يقول لصاحب السلطان: والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا... فلا يعتقل بعدها ولا يسجن ولا تجره الزبانية إلى ساحة التعذيب، ليقر ويعترف... من أوحى إليه بهذه الكلمة؟ ومن من الناس يوافقه عليها؟ وماذا ينوي أن يصنع بعدها؟ وأين يخزن السيوف التي سيقوم بها عوج السلطان؟

أجل، إن أخص ما يميز هذا النظام المنشود أن يرفع السياط عن ظهور الشعب، ويرفع سيف الإرهاب عن رقابه ويشيع في الناس جوا من الحرية والأمن تستطيع معه القلوب أن تحقق، والعقول أن تفكر، والألسنة والأقلام أن تعبر وتقول للظالم: يا ظالم، وللضارب: كف يدك، واتق الله ـ دون أن يتخطفها «كلاب الصيد» إلى المعتقلات والسجون بعد محاكمات هزلية بيناتها: السوط والنار والجليد، أو بغير محاكمة أصلا.

لابد من تغيير سياسي ينتزع السلطة من أيدي الطغاة المستبدين،

ويردها إلى الأمة لتختار لنفسها القوي الأمين، الذي يسخر طاقته لإرادة الأمة لا الذي يسخر طاقات الأمة لإرادته، لتختار الذي يجعل هواه في خدمة الشعب لا الذي يجعل الشعب في خدمة هواه. القوي الأمين، الذي يرحب بالنقد، ويعترف بالخطأ، ويقول ما قاله ابن الخطاب على المنبر: رحم الله امرءا أهدى إلي عيوب نفسي. ويجريء الشعب على نقده فيقول: الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوِّم إعوجاج عمر بحد سيفه.

وحين قال له رجل: اتق الله يا عمر... فنهره بعض من سمعه، قال عمر: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

فان شر ما تصاب به الأمم هو ذلك الصنف من الحكام الفجرة العتاة، الذين يحطمون كل قوة إيجابية في شعوبهم، ليسلس لهم قيادها، ويسلم لهم حكمها بلا معارضة ولا إنكار.

هؤلاء هم الذين يقربون «ساعة» الأمم، ويدنونها من يوم هلاكها وخرابها، ولكل أمة «ساعة» تأتي باتيان أسبابها.

وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة. قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

وكان أول ما قرب ساعة الشعب العربي هو هذا الطراز من طغاة الحكام الذين لا يعبدون إلا مناصبهم، فلا يرعون لله عهداً ولا حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إ لا ولا ذمة.

هؤلاء الحكام الطغاة الذين يحسبون الشعوب قطعانا تساق، هم

الصناع المهرة للهزائم الكبرى، وهم أكبر مُوَرِّد للنكبات والنكسات، في حياة أمتنا.

وهم الحلفاء والأوفياء للصهيونية العالمية. الأمناء على تنفيذ مخططاتها وترجمتها من أحلام إلى واقع، ومن نبوءات إلى حقائق...

أي وربي...

إن هؤلاء الحكام الذين يدعون الإخلاص والوطنية هم أكبر عون للصهيونية وأعظم أدوات لتحقيق أهدافها، أرادوا أو لم يريدوا. إن الصهيونية العالمية لو حكمت بنفسها بلاد العرب، أو استأجرت أناساً ببلايين الدولارات ليفسدوا لها أمة العرب، ويدمرو مقوماتها وخصائصها ومعنوياتها ما استطاعت أن تنجز معشار ما يصنعه هؤلاء الحكام بشعوبهم.

لقد جرد هؤلاء الحكام هذه الشعوب من كل أسلحة القوة ومن كل معاني المقاومة.

لقد أذلوا كرامتها، وأهدروا آدميتها، وسلطوا عليها سيف الإرهاب، وسوط العذاب، حتى سكتت على الضيم وأغضت العين على القذى، وجرت الذيل على الهوان.

لقد خنقوا كل فكر حر، وكسروا كل قلم حر وأخرسوا كل صوت حر، ولم يسمحوا بالعيش والظهور إلا لحملة القماقم، ومحرقي البخور، بين أيدي الظلمة المستبدين.

لقد غلت في عهدهم المعيشة ورخص الإنسان، وعمرت

المراقص وخربت المساجد، وضيق الخناق على الأفكار، وأطلق العنان للشهوات. وأكرم أهل النفاق، وأهين أهل الأيمان.

أولئك هم الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار.

لقد أحسن الشاعر نزار قباني حين صوَّر هؤلاء الطغاة وموقفهم من الحريات ومن الشعوب، فقال:

لو أحد يمنحني الأمان

لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان

قلت له: يا سيدي السلطان

كلابك المفترسات مزقت ردائي

ومخبروك دائما ورائي

عيونهم ورائي...

أنوفهم ورائى...

أقدامهم ورائي...

كالقدر المحتوم، كالقضاء...

يستجوبون زوجتي...

ويكتبون عندهم أسماء أصدقائي...

يا حضرة السلطان

لأنني اقتربت من أسوارك الصماء

لأنني...

حاولت أن أكشف عن حزني وعن بلائي...

obeikandl.com

ضربت بالحذاء . . .

أرغمني جندك أن آكل من حذائي . . .

يا سيدي . . .

يا سيدي السلطان . . .

لقد خسرت الحرب مرتين

لإن نصف شعبنا

ليس له لسان . . .

ما قيمة الشعب الذي

ليس له لسان؟

لأن نصف شعبنا

محاصر كالنمل والجرذان

في داخل الجدران

لو أحد يمنحني الأمان

من عسكر السلطان

قلت له :

لقد خسرت الحرب مرتين

لأنك انفصلت عن قضية الإنسان . . .

فإذا كنا نريد لأمتنا أن تنتصر، وكنا نريد من أمتنا أن تجاهد، فلنزح من طريقها هذه الحجارة التي تعوق سيرها هذا الإرهاب الحاكم الذي يفعل بأنفس الأمة ما تفعله الأمراض الفتاكة بأجسامها .

obeikandl.com

إن الجهاد لا يقوم إلا على الرجال. والرجال لا ينشأون إلا في ظلال الحرية، أما تلك الأنظمة البوليسية المتجبرة على خلق الله، فلن تخلق إلا شعبا من العبيد. والعبيد إنما يحسنون فن الخدمة والطاعة ولكن لا يحسنون فن البطولة وصناعة الموت.

ولقد روت كتب الأدب أن عنترة العبسي كان ـ لسواد لونه ـ غير محظي عند أبيه، وكان يعامله معاملة العبيد، كل مهمته أن يرعى الجمال ويحلب النوق، فلما أغارت يوماً إحدى القبائل على عبس، وكاد المغيرون ينتصرون، وعنترة يقف موقف المتفرج، كأن الأمر لا يهمه ـ قال له أبوه: كر ـ يريد منه أن يشترك في الذود عن القبيلة ـ فقال له عنترة: العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر... فقال الأب: كر وأنت حر.

وهنا ظهرت بطولة العبسي الأسود راعي الأبل وحالب النوق، فقلبت موازين القوى، وردت المغيرين على أعقابهم مخذولين. وكان ذلك بتأثير الشعور بنعمة الحرية «كر وأنت حر».

٢ ـ لا بد من صلاح الدين:

والأمر الثاني الذي لا بد منه لتحقق التعبئة المنشودة غايتها المرجوة هو القائد.

فبدون هذا القائد سيظل هناك سؤال يدور على الشفاه. ويجول في الخواطر، ولا يجد الجواب.

يقول هذا السؤال: لقد دعوت إلى الجهاد ودعوت إلى التعبئة من أجله، فمن الذي يستنفر الأمة لهذا الجهاد، و يجمعها عليه، ويعدها

للقيام بأعبائه، ويجند طاقاتها المادية والمعنوية لخدمته؟

إن الذي يقوم بهذا في نظر الشريعة الإسلامية هو «الخليفة» أو «الإمام» الذي يخلف رسول الله ﷺ في قيادة الأمة الإسلامية ماديا وروحيا. فهو أمامها في الصلاة، وأميرها في الحج، وقائدها في الحرب، ورائدها في السياسة.

إن نصب هذا الخليفة ليس نافلة في الإسلام، بل هو فريضة من فرائضه، والأمة مسؤولة بالتضامن عن ايجاده والمسلمون آثمون إذا عاشوا بغير خليفة، يجمع شتاتهم ويقود سفينتهم، بشريعة ربهم، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «من لقي الله وليس في عنقه بيعة لأمام مات ميتة جاهلية» (رواه مسلم).

ولقد عرفت الصهيونية الماكرة قيمة الخلافة ـ على ما كان بها من علل وعيوب ـ في تجميع المسلمين عند الشدائد والأزمات، فكادت ما وسعها الكيد لتحطيم هذه القلعة الإسلامية العتيدة، واستطاعت بذهبها ونفوذها ودهائها وأدواتها المبثوثة في كل مكان، وأجهزتها العلنية الخفية كالماسونية وما شابهها ـ أن تهدم الخلافة العثمانية التي رفض سلطانها أن يبيع شبراً من فلسطين مهما أغراه اليهود بعشرات الملايين وتقديم المساعدات والخبرات، لشخصه ولدولته.

وهكذا هدمت هذه القلعة الإسلامية، وتمزقت البلاد التي كانت تضمها تحت رايتها، وأصبحت نهباً للمستعمرين الذين قاتل العرب معهم ضد أخوانهم الأتراك المسلمين.

وترك تحطيم الخلافة «فراغاً» في العالم الإسلامي، لا زلنا نشعر به ونعاني آثاره إلى اليوم.

والآن وبعد أن هدمت الخلافة بكيد الصهيونيين ومساعدة العلمانيين يبقى السؤال حائراً... من الذي يعبيء الأمة للجهاد ويعدها ليوم اللقاء؟.

ها تشرئب الأعناق، وتهفو القلوب، وتتطلع الأنظار إلى القيادة المؤمنة التي تقود الأمة إلى «حطين» ثانية، ترد الكرامة الضائعة، والحق المسلوب والوطن المنهوب... لابد إذن من «صلاح الدين».

وما صلاح الدين؟

إنه ليس البطل «الأسطوري» الذي يحمل في أصبعه خاتم سليمان. ولكن «صلاح الدين» يعني الحاكم المسلم الذي يلتزم بمنهج الإسلام، وأحكام الإسلام، وأخلاق الإسلام.

إنه الحاكم الذي يجعل أكبر همه، وشغل فكره وقلبه ، هو نصرة الإسلام، وتحرير أرضه واسترداد كرامته، ورفع رايته في الآفاق، أنه القائد الذي يجند طاقات الأمة كلها للجهاد: المادية والبشرية ويكون هو بخلقه وسلوكه قدوة لأمته في الزهد والتواضع والتقوى والإخلاص لله، وإيثار الآخرة والإعراض عن زخارف الدنيا.

إنه الحاكم الذي لا يضيع درهماً من مال ولا ساعة من زمن، ولا قليلا من طاقة في غير خدمة المعركة المقدسة، وما تتطلبه من تعبئة وإعداد، إنه لا ينفق الجهود والأموال في الدعاية لشخصه، ولا في التجسس على شعبه، ولا في تصفية معارضيه، والغدر بكل من يراه خطراً عليه، ولو كان أقرب الناس إليه.

إنه الحاكم الذي يوالي من والى المسلمين، ويعادي من عادى

المسلمين، ولا يواد يوما من حاد الله ورسوله، ولو كان أباه أو ابنه أو أخاه.

إنه ليس بطلاً وطنياً ولا قومياً، ولكنه بطل إسلامي، لا ينتمي إلا إلى الإسلام وأمة الإسلام... وقد كان صلاح الدين الأول رجلاً كردي الجنس والأصل، ولكنه الذي اختارته الأقدار، لينقذ القدس وفلسطين، وينقذ معها كرامة العرب والإسلام، ومن يدري لعل «صلاح الدين» المنتظر يجيء من باكستان أو تركيا أو نيجيريا أو الصومال... إن صلاح الدين الذي ننتظره ليس «ملكاً» يهبط من السماء في غسق الليل، ولكنه «رجل» يخرج من الأرض في وضح النهار.

وسيخرج حين يتهيأ المجتمع لمثله، ويصبح أهلاً لظهوره، وتقوى فيه إرداة العودة إلى الإسلام «وكما تكونوا يول عليكم» إن بطولة هذا القائد، وشجاعة هذا الحاكم المنتظر، تتجلى أول ما تتجلى في التمرد على أصنام الحضارة لمفاهيمها وقيمها، والتصميم الحاسم على الرجوع إلى الإسلام... كل الإسلام.

• مسؤولية الفكر:

ولكن أليس هذا هو الطريق المسدود؟ وهو «الدور» الذي يصفه علماء المنطق؟ الطريق إلى الخلاص هو الجهاد، والجهاد يقتضي التغيير والتعبئة للأمة، والتغيير والتعبئة يحتاجان إلى القيادة المؤمنة، والقيادة لا تظهر إلا في أمة تستحقها... فكيف التخلص من هذا «الدور»؟ الأمة تحتاج إلى قيادة والقيادة تحتاج إلى أمة؟

والحق أنه لا دور ولا تناقض، فظهور القائد المنشود والحاكم المرتقب يحتاج إلى أرض حرة يرتكز عليها، وإلى كتلة قوية تشد أزره وإلى تيار فكري ينادي به ويشعر الأمة بضرورة وجوده.

وهنا تبرز مسؤولية الفكر ورجال الفكر ودورهم في إعداد الأمة وتعبئتها وتهيئتها للمرحلة الحاسمة، ومرحلة العودة إلى الإسلام، بعد التخلي عن الإسلام، ومرحلة العودة إلى الإسلام هي التي نترجم عنها بظهور «صلاح الدين» المرتقب.

* * *

• غفلة هنا وتفكير هناك:

ألا ليتنا نفكر بعمق كما يفكر عدونا الذي حدد هدفه ووعاه من أول يوم، وحدد له وسائله، وخطط له مراحله ودرس العقبات التي تواجهه وكيف يتغلب عليها والعوامل التي تساعده، وكيف يستفيد منها.

لقد كان يعلم أنه يريد شيئا خطيراً، وهدفاً كبيراً، فكان يفكر على مستوى غايته وهدفه.

كان يعلم أن الشعب اليهودي قد قطّعه الله في الأرض أمما، لم يعد بين أبنائه رابطة لغوية ولا جنسية. ولا وطنية، فقد توزعوا بين مختلف اللغات والأجناس والأوطان. ولم يبق لهم جامع يوحد بينهم، ويربط بين قلوبهم إلا الدين اليهودي ، فلا بد إذن من إحياء الدين في نفوسهم ليكون هو الأساس الذي يتجمعون عليه، والباعث الذي يحفزهم إلى تحقيق الهدف، والهدف نفسه هدف ديني، كما

علمنا . . . وهذا معنى قول الصهيوني هرتزل «إن عودتنا إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية».

وكان العدو الماكر يعلم أنه يتصدى لمقاومة أمة أساسها الدين، وإذا تحركت يوما باسم الدين وتحت رايته فلن تصدها قوة في الأرض. فكان عليه أن يوجه عملاءه وتلاميذه، وقواه المستورة والظاهرة لتعمل معاول الهدم في ذلك الأساس المكين وتحول بين المسلمين وبين دعوتهم إليه.

وهكذا بدأ العدو الصهيوني يعمل وفق مخططه في ميدانين . . . ميدان سلبي وهو تخريب كياننا، وتمزيق أمتنا.

وميدان إيجابي هو بناء نفسه ماديا وأدبيا، بناء يمكنه من تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة، رغم ضعف إمكاناته البشرية من حيث العدد، وسوء وضعه الجغرافي والاستراتيجي من حيث الامتداد والعمق. ورغم الحصار الاقتصادي الذي كان يتوقع أن يضرب عليه.

فماذ كان موقفنا من القضية؟

إنه الذهول والغفلة حتى وقعت الكارثة وحلت النكبة في ١٩٤٨.

وبعد النكبة الأولى أصبحت قضية فلسطين سلعة للمساومة في سوق السياسة العربية وفي سوق الفكر أيضاً، كل زعيم أو رئيس يريد أن يتاجر بها ويكسب من ورائها حتى وقعت النكبة الثانية سنة ١٩٦٧. وكل أصحاب مذهب يريدون أن يستخدموا القضية للكسب المذهبي كذلك. والمخلصون يحاولون الإنقاذ، ولكن معظمها محاولات انتحارية أو إرتجالية. إن الذي نريده اليوم أن يحتل الفكر دوره في

القضية بدلا من الإرتجال والإنتحار أو الغوغائية، و«الديماغوجية» السياسية، أو إستغلالها لخدمة مباديء دخيلة على الأمة لا تجني من ورائها غير الخراب.

• الفكر الذي ننشده:

والفكر الذي نريده هو الفكر الحر الفكر الأصيل، الفكر الشجاع، الفكر الواقعي، وهذه الأوصاف كلها وإن بدت مختلفة هي في الحقيقة صفة واحدة للفكر الحق الذي لا يستحق إسم الفكر غيره. إلا من باب المشاكلة، أو التجوز. وأعني بالفكر الحر:

ذلك الفكر الذي لا يقبل الرق ولا يرضى أن يباع في سوق المساومات، ولا أن يشترى بمال وإن كان ملء الأرض ذهباً.

الفكر الحر هو الذي يأبى الانحياز والتبعية لحاكم أو حزب أو جهة أو معسكر، ويأبى أن يعمل إلا لنفسه ووفق ما ينتهي إليه هو من مقررات، ولا ينقاد إلا لما يؤمن به، لا يغريه الوعد ولا يثنيه الوعيد.

أما الفكر الذي عبَّد نفسه لسلطان الحكم أو لحكم السلطان، ووقف نتاجه على الإطراء والتسبيح بحمد زيد أو عمرو، فليس فكراً حراً، وليس أهلا لأن يسمى فكراً.

وآية الفكر الحر أن يكون أصيلاً وأعني بالفكر الأصيل أن يكون نابعاً من تربيتنا ومن ضمير أمتنا، لا دخيلاً عليها، ولا أجنبياً منها فإن تَسوُّل الأفكار من هنا وهناك لا تثرى به أمة. وكل فكر غريب عن روح الأمة وعقائدها وتراثها أشبه بالدم الغريب الذي ينقل من جسم قوي إلى جسم ضعيف مخالف له في فصيلة الدم، إن هذا الدم المخالف لا

يكسب الجسم الضعيف قوة ولا حياة. وإنما يفضي به إلى موت محقق.

لست أدعو إلى إغلاق النوافذ الفكرية بيننا وبين العالم من حولنا، وإنما أريد أن نتخير من الأفكار ما يلائم طبيعتنا، ويتفق ومواريثنا، وينسجم وشخصيتنا دون أن نتحيز لفكر على آخر، ودون أن نفقد أصالتنا وإبداعنا، أريد أن نقف من كل فكر أجنبي موقف الأحرار لا موقف العبيد وموقف الأغنياء لا موقف الشحاذين.

إننا أمة ذات أهداف وذات رسالة وذات تاريخ، ولا نسمح لأحد أن يسلبنا شخصيتنا ويملي علينا منهجه أو قواعده في التفكير، فنحن لم نخلق لنجر من أذاننا ولا لنقول للمخلوقين أياً كانوا: سمعنا وأطعنا. . . إننا لا نستطيع (أن نحرر أرضنا إذا لم نحرر نحن أنفسنا وأفكارنا، ومن المثير حقاً أننا نحارب اليهود ومع هذا نجد من بيننا من يتتلمذون على أفكار اليهود في الجوانب النفسية و الاجتماعية والاقتصادية، لا داعي لذكر الأسماء فهي معروفة)[1].

على أن الضروري لنا وخاصة في هذه المرحلة من تاريخنا، أن نوحد مصادر الإلهام لتفكيرنا، فإن وحدة الفكر شرط أساسي للنجاح في أي ميدان، والظفر في أي معركة وتعدد مصادر الإلهام لن يجعلنا

---

(١) إن تلاميذ «فرويد» و«ماركس» و«دوركايم» في الوطن العربي ليسوا بالقليل. وهؤلاء الثلاثة كلهم يهود وقد قام كل منهم بدور خطير في تحطيم القيم العليا للمجتمع في جانب من الجوانب. . فرويد في مجال النفس، وماركس في الاقتصاد، ودوركايم في الاجتماع.

أمة واحدة، بل أمما شتى لكل منها غايته واتجاهه ومنهاجه، وفقا لنوع المصادر المستوحاة ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾[1].

وأعني بالفكر الشجاع ذلك الذي لا يهوله ضخامة الأصنام وإن أحيطت بهالات التقديس والتعظيم، وكثر حولها السدنة الطائفون والمتمسحون، ولا يتردد في حمل المعول لهدمها وتعريتها مما أحاط بها من زيف وأساطير، لا يخاف سطوة المنتفعين الخادعين، ولا غضبة الدهماء المخدوعين.

الفكر الشجاع ذلك الذي يتقبل كل نقد نزيه، بل ينقد نفسه بنفسه ولا يستنكف من الاعتراف بالخطأ إذا تبين له، ـ موقناً أن العصمة لله وحده ـ وأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل

الفكر الشجاع هو الذي لا يداهن ولا يتملق ولا يرائي، ولا يجعل كل همه أن يثير ويعجب بل أن يبين ويكشف. الفكر الشجاع هو الذي لا يتأثر بدوي الطبول وصيحات المعجبين أو الناقمين، ولكنه ينظر إلى الأمور بحيدة وإنصاف ـ حسب الطاقة البشرية ـ محاولا النفاذ إلى ما وراء المظاهر، ليلمس الأغوار ويدرك الأسرار، ويكشف الأستار.

وأعني بالفكر الواقعي الفكر الذي يعرف طبيعة الأمة ومقومات شخصيتها الأصيلة، وينفذ من وراء المظاهر السطحية إلى أعماق روحها المستمدة من عقيدتها، وتاريخها وتراثها، ويبني حكمه على أساس هذا الواقع الملموس. إن الفكر الذي يتجاهل واقع الأمة ويبني في الهواء فكر مخرب ضار.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

فإذن إن الدين في أمة كأمتنا هو المقوم الأول لشخصيتها، والمحور الأول لتفكيرها، والوجه الأول لمشاعرها، فالمفكر الأصيل هو الذي يتفاعل وهذا الواقع ويستخدمه لكسب المعركة مع العدو أو مع الطبيعة أو مع الظروف.

لست في مقام الذي يقيم الأدلة على صحة العقيدة التي تؤمن بها الأمة، إنما الذي يهمني هو استغلال طاقات الأمة كلها في معركتها الكبرى، والطاقة الروحية لا يستطيع مكابر أن يجحد قوتها وتأثيرها وإيحاءها، والإيمان من غير شك أعظم مولد للطاقة الروحية، فكيف يجوز لمفكر أن يغفل هذه الطاقات المذخورة في كيان الأمة، ويتجاهل إيمانها بربها ودينها، لا لشيء إلا ليصفه بعض الناس بأن فكره «عصري».

إن الإيمان بالله وبرسالاته وبالدار الآخرة، واقع محس يعيشه أبناء الأمة، ويكيفون تفكيرهم ورغباتهم وسلوكهم وفقاً له. حسبما أوتوا من قوة الإرادة وحسن التربية، ولا بد من النزول على حكم هذا الواقع. ومخاطبة الأمة بمنطقه، وتوجيهها بمقتضاه واستخراج قواها المذخورة بسلطانه.

يقول الدكتور جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»[1]:

«تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشداً لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان، أجل، قد تجد بين

---

(١) ص ٤١٧ ـ ٤١٨.

المسلمين عدداً قليلاً من الزنادقة والأخلياء، ولكنك لن ترى من يجرؤ على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة في المساجد وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به النصارى، كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وأفريقية، ومن ذلك أن أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين في الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم، فقضيت العجب حين رأيتهم وهم الذين خرقوا حرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسىٰ العقوبات، لم يجرأوا على انتهاك تعاليم النبي، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله الواحد القهار ويعبدوه.

وعلى من يرغب فهم حقيقة أمم الشرق ـ التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً ـ أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، وللدين في التأثير الضئيل فينا نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يؤثر في نفوسهم، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين منذ الثورة الحديثة التي ضرجت مصر بالدماء.

وإن الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقاً، فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصبرون به على قسوة الصبر».

هذا رأي فيلسوف محايد، ومراقب أجنبي، في طبيعة هذه الأمة، وتأثير الدين فيها، فمن أراد أن يستثير البطولة في أعماقها، وأن

يستخرج منها أقصى مكنوناتها وذخائرها، فليخاطبها باسم الله، وليقدها بزمام الإيمان، وتحت راية التوحيد. هنالك تصنع العجائب، وتأتي بالمعجزات، وتعيد تاريخها الأول من جديد!.

obeikandl.com